2

تكلموا فى المهد

عيسى عليه السلام

بقلم :

أ. د. محمد سيد أحمد المسَيَّر

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الثانية

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

obeikandl.com

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب أطفال وناشئة

سلسلة تكلموا فى المهد

تصميم الغلاف:

منال بدران

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

المسير، محمد سيد أحمد.

عيسى عليه السلام / بقلم: محمد سيد أحمد المسير.

- ط 02 - القاهرة: دار المعارف، 2015.

40 ص، 19.5 سم (تكلموا فى المهد؛ 2)

تدمك 9 8277 02 977 978

1 - قصص القرآن.

2 - القصص الدينية.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 229.5

رقم الإيداع: 25193/ 2015

رقم الكونجرس: 8 - 840056 - 01 - 2

رقم أمر التشغيل: 23/ 2015/ 7

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩

E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد..

فَيسـرنَا أَنْ نقدمَ أحدَ الأطفالِ الذينَ تكلَّموا فِى المهدِ، وَأنْطَقهم الله الذى أنطقَ كلَّ شىء..

إنهُ المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ عليهمَا السَّلام..

وذلكَ من خلالِ عرضٍ مُوجز لسيرةِ أمهِ فِى ميلادهَا ونشأتهَا وحمْلهَا، دونَ أنْ يمسهَا بَشرٌ..

ثمَّ قصةُ هذَا المسيح حينَ أنطقهُ الله ليبرِّئ أُمَّهُ، ويكونَ شاهدًا عَلى طهارتهَا وعفافهَا، وَليبشرَ برسالةٍ تنتظرهُ، يمنُّ الله بهَا عليْهِ، كَىْ يعيدَ الناسَ إلى نقاءِ التوحيدِ، وصفَاءِ الرُّوح، وحُسْن المعاملَة..

ولعلَّ فِى هذه القصةِ، وهذَا الموْقف مَا يحذرُ السُّفهاءَ مِنَ الناسِ، أَنْ يتَّهمُوا الأبرياءَ أو يُشيعُوا المنكرَ حولَ الشرفَاء..

والله ولى التوفيق

obeikandl.com

آل عمران

فِي القرآنِ المجيدِ سورةٌ تُسمى «آل عمران» وهيَ الثالثةُ فِي ترتيبِ المصحفِ الشَّريف، نزلتْ بعدَ الهجرةِ، وآياتها مائتان...

والآياتُ المتعلقةُ بآل عمْران بدأتْ بقولِ اللهِ تعالىَ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وآل الرجُل- فى اللغةِ- أهلهُ وعيالُهُ، ولا تستعملُ كلمةُ الآل إلاَّ فيمَا له شرفٌ وَلو ادعَاء... وعَلى هذَا لاَ يرد قوله تعالى:

﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[2]

فهوَ منْ قبيلِ التهكُّمِ بِهِم..

والمرادُ بآل عمران امرأتهُ وما تناسلَ منهَا ممنْ لهمُ الذكرُ والاصْطِفَاءِ، وهُمْ مَرْيم وعيسَى عليهمَا السلام، وَعِمْران أبُو مريمَ

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة غافر – الآية ٤٦.

obeikandl.com

هوَ غيرُ عمْران وَالد موسَى وهارونَ عليهمَا السَّلام، وبينَ عِمْران هذا وذاك ألفٌ وثمانمائة سنة كمَا ذكرَ ذلكَ الزمخشرى[1].

والآياتُ هنَا تتحدثُ عنْ رغبةٍ نفسية لامرأَة عمرانَ فى إنجاب الولد، فلمَّا حملتْ بعدَ طولِ يأسٍ تمنَّتْ أنْ يكونَ وليدهَا ذكرًا، وهوَ معنَى قولهُ تعالىَ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[2]

أىْ أنهَا رغبتْ فِى وَليد ذكرٍ، ولتأكيد رغبتهَا نذرتهُ لخدمةِ بيتِ المقدسِ، وَمَا كانتِ الخدمةُ يومئذٍ إلَّا للغلمَانِ، ومعنَى «محررًا» أى مُعتقًا لخدمةِ بيتِ المقدسِ لا سلطانَ لهَا عليه، بلْ هوَ مُتفرغٌ لعمَارةِ البيتِ وعبادةِ الله فيه.

وظاهرُ النصِّ وفحوَى الحوارِ معَ امرأةِ عمران دونَ حديثٍ عَنْ عمرانَ نفسه، يدلُّ عَلَى أنَّ عمرانَ ماتَ أثناءَ الحملِ، ولذلكَ جاءتِ القصةُ مُرتبطة بهذهِ المرأةِ الطَّاهرة.

ويشاءُ اللهُ أَنْ تحينَ لحظةُ المخاضِ، وتضعَ أُنثى فقالتْ فِى ندمٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[3].

---

(١) الكشاف ج١ ص٤٢٤.

(٢) سورة آل عمران – الآية ٣٥.

(٣) سورة آل عمران – الآية ٣٦.

أَىْ أنَّ نذرهَا لَنْ تستطيعَ الوَفَاء به، ولَنْ يتحققَ أملُها فِى إنجابِ الذَّكرِ.

ولكنَّ حكمةَ اللّه بَالغة:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[1].

فإنَّ اللّه قـدْ رتبَ عَلى هذه الأُنثى مِنْ عظائم الأمور، وغرائبِ الأحوالِ، مَا سيجعلهَا آيةً للعالمينَ..

ولما أَفاقـت امرأةُ عمرانَ مـنْ تأملاتهَا وأدركتْ حقيقةَ أمرهَا، بـدأتْ تتعاملُ معَ الواقعِ الذى منحهُ اللّه لهَا فقالتْ:

﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[2].

وفى هذَا دَلالة عَلى جوازِ التسـميَةِ للمولُود منذُ اليـوم الأولِ، وجاءَ فـى ذلكَ أحاديثٌ شـريفةٌ فِى الصَّحيحيْن منهَا قولهُ ﷺ: «وُلد لِى الليلةَ ولد سمَّيتهُ إبراهيمَ».

وذهبَ أنسُ بن مَالك بأخيه حينَ ولدتهُ أمهُ إلى رسولِ الله ﷺ فحنَّكهُ أىْ مضغَ تمرةً ثمَّ وَضعهَا فِى فَمِه وسمَّاهُ عبدَ اللّه.

(١) سورة آل عمران – الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران – الآية ٣٦.

obeikandl.com

ومـنَ الخيـرِ أَنْ تُقابلَ النعمة بالشـكرِ، وأَنْ نلجأَ إلـى الله كَيْ يعصمنَا مِنَ الزلل ويحفظنَا منَ الانحراف، ويقينَا منْ شـرِّ الوسوَاس الخنَّـاس، ولذلكَ لجأت امـرأةُ عمرانَ بالدعَاء الضَّـارع إِلَى اللّه عزَّ وجلَّ أَنْ يجعلَ مريـمَ مـنَ الصَّالحاتِ القَانتاتِ، ولَـمْ تنسَ فِي تلكَ اللَّحظةِ الروحيةِ أَنْ تمتدَّ آمالُهَا وتسـألَ اللّهَ اسـتمرارًا لنسـلهَا فِي الصَّلاحِ والتقوَى فقالتْ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾[1].

واستجابَ اللّهُ الدعاءَ وحققَ الرجَاء: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾[2].

فقدْ تقبَّلَ اللهُ نذرَهَا، وَاسْتَثْنَاهَا القومُ فقبلوهَا فِي خدمةِ البيتِ المقدسِ عَلى غيرِ عَادتهم، وحفظهَا اللّه بعنايته فَشَبَّتْ فِي الصلاحِ والعفَافِ، وتنافسَ عليهَا أحبارُهُم كَيْ يكْفلُوهَا، فجعلهَا اللّه فِي كَفالةِ زكريَّا عليهِ السَّلام، وَهُوَ زوجُ أختهَا أَوْ خالتهَا عَلىَ اختلافِ الروَايَات.

(١) سورة آل عمران – الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران – الآية ٣٧.

ومكَّن الله لمريـمَ فأحاطهَا بالكرامة، فـكانَ زكريَّا يجدُ عندهَا فاكهةَ الشتاء فى الصَّيف، وفاكهةَ الصيف فى الشتاء، ولما سألَ عنْ سرِّ ذلكَ، أجابتهُ مريمُ بيقين المؤمنينَ وَإيمانِ المتقينَ.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ابن مريم

السـورةُ التاسعَةَ عشرةَ منْ سـور القرآنِ العظيم تسمَّى سورةَ «مريم» وَقَدْ ذكرتْ حياةَ مريمَ الخاصَّة ومَا ارتبطَتْ بهِ منْ مُعجزةِ الحمْلِ بعيسَـى وَوِلادته منْ غيرِ أَبٍ، وَتكريم اللهِ لهَا ومخاطبتهَا لروحِ القدسِ جبريل، ومَا اكتنفهَا منْ عَجائبِ الخلقِ والتدْبير.

قالَ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٣٧.

(٢) سورة مريم – الآيات من ١٦ : ١٩.

obeikandl.com

وَالانتبـاذُ هُوَ الاعتـزَالُ والانفرَادُ، وقد اعتزلـتْ مريمُ أهلهَا فِى وقتٍ مَا شَـرقى المسْـجد، أَوْ فِى موضعٍ تسطعُ فيهِ الشمسُ، يقالُ تَشَرَّقَ إذَا جلسَ فِى الشَّمْس.

وقالَ بعضُهم: «مكانًا شـرقيًّا» أىْ شاسعًا مُتَنَحِّيًا، فالمرادُ أنهَا جلسَتْ بعيدةً عنْ أعينِ النَّاس، ولعلهَا كانتْ فِى تأمُّلٍ أَوْ فسحةٍ أَوْ حَاجَة.

وَفِى هذَا المكانِ حملتْ مريم بعيسَى عليهِ السَّلام منْ غيرِ أَنْ يمسَّـهَا بشرٌ لتكونَ آيةً للناسِ عَلَى قدرةِ الخَالقِ الأَعْظَم.

وقَدْ وضَّحت السـورةُ عدةَ مواقـفَ يتجَلى فيهَا التدبيرُ الإلهى الأَعْلى:

الأول: مَا عبرَّ عنهُ القرآنُ فِى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[1].

فالروحُ هنَا هوَ جبريلُ عليهِ السَّـلام أُرسـلَ إلى مريمَ البَتُول ليطمئـنَ فؤادَهَا ويعلمهَا قبلًا بمَا اختصَّها اللّه بهِ منَ الكَرامة، فتمثَّل لهَا بشرًا سويًّا، لتأنسَ بحَديثه ومحَاورَته، إذْ لوْ رأتهُ عَلى صُورته الحقيقيةِ الملائكيةِ لنالهَا الفزعُ الأَكْبر.

---

(١) سورة آل عمران – الآية ١٧.

وقولها: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾[1].

يُوحى بأنها ارْتجفتْ بشدَّة عندمَا فُوجئت ببشرٍ فِى مكانِ خَلوتهَا، وظنَّتْ أنهُ يريدهَا بسوءٍ فذكَّرتهُ بالخوفِ منَ الجليلِ، ونبهتْهُ إلى بقيةِ إيمانٍ قدْ تمنعهُ منَ اقترافِ الفَاحِشَة.

هنَا فاجأهَا بحقيقَةِ الأمرِ، وَهِىَ أنهُ ملكٌ مرسلٌ إليهَا منْ قبلِ اللّه تعالىَ؛ ليخبرهَا بمَا اختصهَا اللّهُ تعالىَ بهِ منَ الكرامةِ، فاسْتَسْلمتْ مريمُ لقضَاء اللّه وَمشيئته العليَا.

الثانى: وقدْ عبّرَ القرآنُ عنْ حمْل مريم بنفْخ الرُّوح فيهَا كمَا جاءَ فِى قولهِ تعالىَ: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾[2].

وبنفْخ الرُّوح فيهِ كمَا جاءَ فِى قولهِ تعالَى:

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران - الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٩١.

(٣) سورة التحريم - الآية ١٢.

وَالضَّميرُ فى الموضعيْنِ ليسَ عائدًا عَلى الفرْج، وإنماَ هوَ يعودُ عَلى مريمَ أَوْ علَى عيسَـى عليهمَا السَّلام، والمرادُ بكلاَ التعبيريْنِ حمْـل مريم وإحيَاء الجنين فِى رحمهَا، فالنفخُ هُوَ بثُّ الحياةِ فِى عيسَى عليه السَّلام، وعادَ الضميرُ مؤنثًا فِى سُورةِ الأنبياءِ لأنَّ عيسَى فِى بطْنِ مريمَ، فَنزل النفْخ فِى عيسَى مَنْزلة النفْخ فِى مريمَ. وعادَ الضميرُ مذكرًا فى سُورةِ التحريمِ عَلى الظَّاهرِ منْ نفْخِ الرُّوحِ فِى عِيسَى.

ومعنَى «منْ روحنَا» أي منحناهُ روحًا أَىْ حياةً من خلقنَا، كمَا قالَ تعالَى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[1].

الثالث: وهو رأى جمهـورُ العلمَاء عَلى أنَّ حمْلَ مريمَ بعيسَـى كانَ حملًا يشبهُ حملَ سـائرِ النساءِ، اسـتغرقَ تسعةَ أشـهرٍ حتَّى يَشـيعَ الخبرُ وتُمتحن النفُوس، ويعظمَ الأجرُ لمريمَ بصبْرهَا وَمُكَابدتهَا.

وقولـهُ تعالَـى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[2].

---

(١) سورة صٓ – الآية ٧٢.

(٢) سورة مريم – الآية ٢٢، ٢٣.

يؤكدُ أَنَّ الحملَ كان طَبيعيًا كسائرِ الأَحْمال، وعندمَا اسْتَشْعرت مريمُ عليهَا السلام بوادرَ الحملِ توارتْ خجَلًا منْ قومهَا، واعْتزلَت فِى مكَانٍ بعيد، ولمَّا أتمتْ مدةَ حملهَا جاءهَا المخاضُ وَآلام الوضْع، وتحوَّلَ الشكُّ إلى يقين، وصَار الحلمُ حقيقةً، ولهذَا قالتْ: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[1] لأنهَا إنْ كانتْ قَدِ اسْتطاعتْ أَنْ تتوارَى أثناءَ الحمْل، فإنَها لاَ تستطيعُ الآنَ أَنْ تخفى وليدَهَا، ولكنَّ اللهَ تعالَى ثبتَهَا وأحاطهَا بخوَارقِ العادات الناطقة ببراءتهَا.

وَالفاءُ فِى الأفعَالِ الثلاثة: فحملتْهُ، فانتبذَتْ به، فأجاءهَا المخاضُ، وَإنْ كانتْ فى الأصْلِ للترتيبِ وَالتَّعْقيب؛ إلَّا أنَّ تعقيبَ كلِّ شىءٍ بحسبه كمَا قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2].

فإنَّ هذه التحوُّلاتِ منَ العلقَة إلَى المضْغَة، إلى العِظَام، إلَى العظَام المكْسُوة باللَّحم لَا تتمُّ فِى لحظةٍ واحدةٍ، وإنمَا تستغرقُ

(١) سورة مريم – الآية ٢٣.

(٢) سورة المؤمنون – الآية ١٤.

كلُّ مرحلـةٍ أيامًا ولياليَ كمَا أخبـرَ بذلكَ الصَّادقُ المصدُوقُ ﷺ في قوله - كَمَا رواهُ البخَاري ومُسْلم: «إن أحدَكم يجمعُ خلقهُ في بطنِ أُمه أربعينَ يومًا نطفةً ثمَّ يكونُ علقةً مِثْلُ ذلكَ ثُمَّ يكونُ مضغَةً مثلُ ذلكَ، ثمَّ يرسَـلُ إليه الملكُ فينفخُ فيه الرُّوح، وَيُؤْمرُ بأربعِ كلمَاتٍ: بِكَتْبِ رزقه، وأَجَله، وَعَمَله، وشقيٌّ أَوْ سَعيد».

وليـسَ هناكَ نصٌّ صحيحٌ يعتمدُ عليـه يفيد أنَّ حمْلَ عيسَى ووضْعهُ كانَ سريعًا أَوْ عَلىَ غيرِ مَا اعتادتْهُ النسَاء.

والقـولُ بسـرعةِ الحمْـل والوضْـع هـوَ مـنْ غرائبِ الأَخبار.

الرابع: في هذه الحال النفسـيّة المضْطربة، كانَ التثبيتُ منَ المولىَ سبحانهُ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[1].

لَقَـدْ عاودهَا جبريـلُ الأمينْ بعـدَ أنْ وضعتْ حملهَـا لكمَالِ شُـهورِه، وَطَمْأنها بأنَّ كفالةَ اللّه لَنْ تتخلَّـى عنهَا، إذْ هيأَ لهَا عَلى

(١) سورة مريم – الآيات من ٢٤ : ٢٦.

غيرِ العَادةِ سَـرِيًّا، وهوَ جدولُ ماءٍ يجْرِى، ونخْلةٍ تُسَاقِطُ رُطبًا فِى غيرِ موْعدِه.

الخامس: كانَ منَ الممكنِ أَنْ يتسـاقطَ الرطبُ بنفسـه، وبفعلِ عَوَاملِ الريـحِ وغيرِهَا، وَلكنْ لمزيدِ تأكيدِ عنايـةِ اللّه بهذه المرأةِ العذْرَاءِ البتـولِ قيلَ لهَا: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[1].

فهِىَ فتـاةٌ عذراءُ مَازَالت صَغيرةَ السِّـنِّ، وهِىَ نُفَسَـاءُ مَريضَةٌ، ومعَ ذلكَ تهزُّ نخلةً لا يقدرُ عليهَا العصبةُ منَ الرجالِ، إظْهَارًا لعنَايةِ اللّه بهَا، وكرامتِه لهَا، وأنهُ لنْ يضيعهَا.

السادس: لَمْ تدرِ مريمُ مَا تُواجهُ به قومَهَا فأمسَكت عن الكلام استجابةً لنصيحَةِ جبريل لهَا: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[2].

ولَمَّا شاعَ الخبرُ أخذَ الناسُ يتقَوَّلُونَ عليهَا:

﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[3].

(١) سورة مريم – الآية ٢٥.

(٢) سورة مريم – الآية ٢٦.

(٣) سورة مريم – الآية ٢٧، ٢٨.

obeikandl.com

والمـرادُ بقولهِمْ «يا أختَ هارون»، يَا مَنْ تشـبهينَ هَارون أخَا موسَـى عليهمَا السَّـلامُ فِى التقوَى والصَّلاَح، فَهِى مِنْ نَسْـلِه، كمَا يُقالُ يا أخَا الإِسْـلَام، أَوْ يا أخَا العروبةِ، أو يَا أخا قُريش، هنَا تدخلَ القدرُ الإلهى الأَعْلى وحسمَ الموقفَ حسمًا تَامًّا، فإذَا بالصَّبِى الذِى فِى المهدِ ينطقُ ببراءَةِ أُمه، وبرسَـالةٍ تنتظرهُ ليعيدَ الناسَ إِلىَ الروحَانيةِ الخالصَة بعدَ أَنْ غشيتْهُم المادةُ الحَالكة، وَليرشـدَهُم إِلَى حقوقِ اللّه وحقوقِ العبَادِ بعدَ أَنْ فَرَّطُوا فيهَا، وليذكرَهُم بيومِ النشُورِ والبعْث.

ويصـورُ ذلكَ كله قولُـه تعالىَ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[1].

تلكَ هىَ قصةُ عيسَـى ابن مريم عبد اللّه ورسُـوله، كانَ بشـرًا كالبشَـرِ يأكلُ الطعامَ ويمشِى فِى الأسـواقِ، ورسولًا كالرسلِ يدعُو إِلَى الوحدانيَّةِ الخالصَةِ وَعبَادة اللّه وَحْده.

---

(١) سورة مريم - الآية ٢٩ - ٣١

ولكنَّ النـاسَ اختلفُوا فيهِ مَـا بينَ محبٍّ غـالٍ ومبغضٍ حَاقد، ومَا بينَ معتقـدٍ فـي رسَـالتهِ وَمُنْكرٍ، ومَـا بينَ مُصـدقٍ بوجُودهِ وَمُكذب.

وقَـدْ حكمَ القرآنُ فعـدَلَ وقالَ فصـدقَ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

دروس وعبر

لَقَدْ كانَ كلامُ عيسَى عليه السَّلام فِى المهدِ، دَلالَةٌ عَلى مجموعَةِ عَقائد وسُلوكيَّات وَأخلاقٍ منْهَا:

١ ـ الشاهد الصادق:

لقد كانَ شاهدًا لاَ يكذبُ فى قضيَّة غابَ شهودُهَا، فمريـمُ عليهَا السـلام الطَّاهرةُ البتـولُ حملَتْ بقدرةِ الله عزّ وجـلّ، ووضعَتْ هذَا الطفلَ دونَ أَنْ يمسَّـهَا بَشر..

لقـدْ قالَ الناسُ عَلى مريمَ بهتانًـا عظيمًا، وَاتَّهموهَا زُورًا وكذبًا، فأنطـقَ الله هـذَا الطفلَ الوليـدَ ليبرِّئَ أمـهُ وَيُثبتَ لهـا الطَّهارَةَ والعفَّة..

---

(١) سورة مريم – الآية ٣٤.

obeikandl.com

إنَّ شهادةَ الزور، وقذْف المحصنات المؤمنَات، منْ أكبرِ الكبائرِ؛ لما يترتبُ عَلى ذلكَ منْ مفاسدَ أخلاقيَّة واجتماعيَّة، تقطعُ الأَوَاصرَ وتمزقُ الشمْل وَتُسيءُ إلى المجتمع كُلِّه..

قَال رسولُ الله ﷺ «أَلَا أُنبئكُمْ بأكبرِ الكبَائر؟ قَالُوا: بَلَى يا رسولَ الله: قالَ: الإشراكُ باللَّه، وعُقُوق الوَالديْن» وكانَ متكئًا فجلسَ فقالَ: أَلَا وَقولُ الزورِ وشَهادةُ الزُّورِ، فَمَازالَ يكررهَا حتَّى قالَ الصَّحابة: «لَيْته سَكَت» أَيْ منْ شدَّة الوعيد وَالتَّهْديد..

وقَدْ توعَّدَ الله تعالى الذينَ يرمونَ المحصناتِ باللَّعْنة فِى الدنيا والآخرة، وجعلَ عقوبةً زاجرةً لهمْ، وهىَ الجلدُ ثمانينَ جَلدة وَرَد شَهادتهم أبدًا، وَتَسْجيل أسمَائهم فِى سجلِّ الفَاسقينَ الخَارجينَ عَلَى القيم..

قَالَ الله تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

والمحصناتُ هنَّ النساءُ العَفيفاتُ سَواء كُنَّ ثيِّبَات أوْ أبكارًا...

والمطلوبُ شرعًا منَ القاذف، أَنْ يقدمَ دلائلَ عَلى اتِّهامه، وَهىَ أَرْبعَة شُهود يرونَ رأىَ العينِ ارتكابَ الفاحشة، فإنْ لمْ يُقدم البينة

(١) سورة النور - الآية ٤.

عَلى قوله وُقِّعتْ عَلَى القاذفِ تلكَ العقوبةُ حتَّى تُصانَ الأعراضُ عَنِ القيلِ والقَال.

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[1].

ومعنَى الغافلاتِ اللآئى سَلِمت صدروهُنَّ من المآثم والفواحشِ، وَلَا يَعْرِفنَ إلَّا عِفافَ النفسِ وَصَفاء القلبِ وَنورِ الإيمان وليسَ لهنَّ حديثٌ مُنكَر أو فعلٌ مُحَرم...

٢ ـ بين آدم وعيسى:

إنَّ ميلادَ عيسَى ابنِ مريم يُؤكد طلاقةَ القدرةِ الإلهيَّةِ التي لا تقفُ عند حدٍ ولا يعجزهَا شيء..

إنَّ ميلادَ عيسَى عليه السلام تتميمٌ للقسمةِ العقليَّة:

فنحنُ البشرُ إمَّا أنْ نُوجد وَنُخْلق مِنْ غيرِ أبٍ وَلاَ أُمٍّ، وهذَا هُوَ آدمُ عَليه السَّلام، خلقهُ الله منْ ترابٍ ثُم قالَ لهُ كنْ فيكُون...

وإمَّا أنْ نُخلق ونُوجد منْ أَبٍ دونَ أُمٍّ، وهذه هِيَ حَوَّاءُ فقدْ خَلقهَا الله تعَالى منْ نفسِ آدمَ...

---

(١) سورة النور – الآية ٢٣.

obeikandl.com

وَإِمَّا أَنْ نُخلق ونوُجد بآبـاء وأُمهاتٍ، وقَدْ تحققَ ذلكَ فِي ذُريةِ آدمَ مِنْ خلالِ التكاثرِ البشرِيِّ...

وبَقَى القسمُ الرابعُ وهوَ الخلقُ من أُمٍّ دَون أَبٍ، وهذَا هوَ عيسَى عليه السَّلام..

ونَسوقُ قصةَ خلْق آدمَ عليه السلام؛ لِتَظْهر الحقيقةُ الجليَّةُ وَهِىَ أَنَّ الله تعالىَ هوَ أحسنُ الخَالقينَ...

إِنَّ قصةَ خلْق آدمَ مِنَ الأُمورِ السَّمعية التى تلقيناهَا عَنِ الوحْيِ الإلهى، ولَا تخضعُ لتصورات البشـرِ وَهذه القصـة فِى البيانِ القُرْآنى مَـرَّت بمراحِل عَبّرت عنهَا الآياتُ الكريماتُ فِى أَكثر مِنْ سورةٍ...

المرحلة الأولى : من تراب:

وإليهَا الإشـارةُ بقـولِ الله تعالـىَ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

فـآدمُ خلقَ مِنْ ترابِ الأرضِ مباشـرةً، ولعلَّ هذه المرحَلة تمثلُ الصلةَ بينَ هذَا الكائنِ الجديدِ وهذه الأرض، فهوَ خليفةٌ فيهَا يعمرهَا ويستثمرُ خيراتِهَا باسْم الله وعَلى هَدْى تَشْريعه الحكِيم.

(١) سورة آل عمران – الآية ٥٩.

obeikandl.com

المرحلة الثانية : من طين:

وإليها الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾[1].

فالترابُ إذا صُبَّ عليه الماء صَار طينًا، ويمثلُ الماءُ عنصرًا أساسيًّا في خلق كافَّة الكائنات الحَّية تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[2].

وقدْ نصَّ القرآنُ على الماء في خلْق الإنسان في قوله سُبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾[3].

المرحلة الثالثة : من طين لازب:

وإليها الإشارةُ بقوله جلَّ شأنه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾[4].

واللازبُ الملتصقُ باليد عندَ المماسة، وتلك مرحلة تعقبُ تحوُّل التراب إلى طين مُباشرة.

ومعنَى «خَلَقْنَاهُم»: خلقنَا أباهُم الأولُ آدمَ عليه السلام فهمْ إليه يُنْسبونَ.

---

(١) سورة صٓ – الآية ٧١.

(٢) سورة الأنبياء – الآية ٣٠.

(٣) سورة الفرقان – الآية ٥٤.

(٤) سورة الصافات – الآية ١١.

المرحلة الرابعة : من حمأ مسنون:

وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

الحَمـــأ: هُوَ الطينُ الأسودُ.

والمسنونُ: هُوَ المتغيِّرُ.

فالطينُ عندَ تركهِ فَترة مُعينة يصيرُ حَمَأً مَسْنونًا.

المرحلة الخامسة : من صلصال:

وقدْ وردتِ الإشارةُ إليهَا فِى مثلِ قولهِ تعالَى:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

والصَّلصـــالُ هو الطيـــنُ اليابسُ الذِى يُســـمعُ لَهُ صلصلةٌ أىْ صوتٌ عندَ النقرِ عَليه.

المرحلة السادسة : كالفخار:

وهى مرحلـــةٌ لَهَا منَ اليبسِ والصَّلابـــةِ ما يُقربهَا إِلـــى الفخَارِ، ولمْ يردْ ذكرٌ لهـــذهِ المرحلةِ إلَّا فِى آية سورةِ الرحمنِ السَّابقة.

وبذلكَ تمتْ تسويةُ البدنِ المَادية.

---

(١) سورة الحجر – الآية ٢٨.

(٢) سورة الرحمن – الآية ١٤.

obeikandl.com

المرحلة السابعة : نفخ الروح:

وإليهَا الإشـارةُ بقوله سُـبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وبهذَا تـمَّ خلْق الكائن الجديـد والإنسـانِ الأول، وكانَ خاتمةَ مطاف الخلقِ الإلهى لأجنَاسِ هذَا الكونِ وأنواعه.

ومنْ هنَا كانَ الاحتفاءُ به فى الملأ الأعْلى، حيثُ صدرَ الأمرُ الإلهى للملائكة وَإبليس بالسـجود لآدمَ: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2].

وأُحيط آدمُ علمًا بالأسمَاء كلهَا تمهيدًا لممارسة خلافته فـى الأرض، هذَا وقدْ جعل بعضُ الباحثينَ مراحلَ خلْقِ آدمَ عشـراً، فذكرَ مرحلةً ثانيةً هىَ الماء عَقـب مَرْحلة التراب، وذكـرَ مرحلةً رابعةً هىَ منْ سـلالةٍ منْ طيـنٍ بعدَ مرحلة الطينِ، وذكرَ مرحلةً تاسعةً هىَ التسويةُ قبلَ نفْخِ الرُّوح[3].

ولكنى آثرتُ هذه المراحلَ السـبعَ فقطْ؛ لأنَّ الماءَ لَمْ يرد استقلالًا لآدمَ عَلـى وجْـهِ الخصُـوص، وإنماَ وردَ للإنسـانِ عَلى وجْـهِ العموم

---

(١) سورة الحجر – الآية ٢٩.

(٢) سورة الكهف – الآية ٥٠.

(٣) راجع كتاب: العقيدة والفطرة: د. محمد فتح الله بدران: ص٥٣، ط. زهران.

obeikandl.com

كمَا فِي قولِـه تعالَـى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[1].

فقدْ يرادُ بالماءِ هنَا الماءُ الدافقُ أَوِ الماءُ المطْلق.

ومرحلةُ السُّـلالةِ منْ طينٍ لَا تعنِـى أكثرَ منْ مرحلةِ الطينِ؛ لأنَّ النـصَّ الكريمَ وردَ بقولِه: «من طين» ولفـظ «مِنْ» يفيدُ التبعيضَ فيلتقِى معَ معنَى السُّلَالة.

ومرحلةُ التسويةِ لا تعنِى شيئًا أكثرَ منْ تمامِ المراحلِ السابقةِ، وعندمَا نُلاحظ سياقَهَا فِى النظمِ الكريمِ، نجدُ أنهَا ذُكرت حيـثُ طُويت المراحلُ السَّـالفةُ بعضُهَا أو معظمُهَا، ونقرأُ مثلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

فهنَا طُويت مراحلُ الترابِ والطينِ، والطينِ اللَّازبِ وكالفَخار.

وَفِى سـورة أُخرى نقرأُ قولَهُ تعالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ

---

(١) سورة الفرقان – الآية ٥٤.

(٢) سورة الحجر – الآية ٢٨، ٢٩.

سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1]. فلـــمْ تذكرْ هنَا إلَّا مرحَلة واحِدَة وطُويتْ باقِي المراحِل المادية...

هــذَا هوَ خَلْق آدمَ، وتلكَ هيَ ولَادة عيسَــى، وكلاهمَا بأمر الله تعالَى، وَكلمتهُ التكوينيَّة «كُــنْ فيكُون»، وليسَ فِي ذلكَ إرادةٌ لأيٍّ منهمَا؛ وَإنمَا هِيَ إرادةُ الله وحْده..

قــال تعالــى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

ولَوْ تأمَّلنَا قليــلا لوجدْنَا أنَّ خلقَ آدمَ أعْجب مِنْ وِلَادة المسيح عيسَى منْ وجُوه.

١ - خلقُ آدمَ إبداعٌ لمْ يُسْبق، فليسَ لهُ نظيرٌ سَابقٌ فِي الخلق، أمَّا ولَادة عيسَى فهِيَ امتدادٌ لنموذجٍ قَائم يَعرفهُ النَّاسُ جميعًا.

٢ - لمْ يُحشَر آدمُ فِي بطنِ امرأة، ولَا خرجَ منْ فرجهَا، لكنَّ عيسَى نشَأ فِي ظُلمات الرحم، واسْتهلَّ صارخًا منْ فرج المرأة.

٣ - مَا كانَ آدمُ إلا بشــرًا ســويًّا، لكنَّ عيسَــى مرَّ بأطوَار الجنينِ ومراحِل الطفولَة والصبَا والشبابِ والكُهولَة.

(١) سورة صٓ - الآية ٧١، ٧٢.

(٢) سورة القصص - الآية ٦٨.

٤ - سكنَ آدمُ الجنةَ حينًا منَ الدهرِ؛ ليتعرَّفَ عَلىَ الملكوتِ الأَعْلَى. علَّمهُ الله الأسماءَ كلَّهَا وأسْجدَ لَهُ الملائكةَ سُجودَ تحيَّةٍ وَاحْترام، لكنَّ عيسَى التَقَمَ ثَدْى المرأةِ وَعَاشَ بينَ جَنبَات الأرض، وصدقَ اللـه حيثُ يقولُ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

٣ ـ شرف العبودية لله

إنَّ عيسَى عليه السلام، وُلد من امرأة هى مريمُ التى لَمْ تتزوجْ ولَا يُعرف عَنْها ارْتكابُ فَاحشةٍ أَوْ مُنكر.

فالمرأةُ مُحددة المعَالم وَاضحة الشخصيَّة، إنَّهَا مريمُ بنتُ عمرَان الذى شهدَ الجميعُ بتقواهُ وخشُوعه للَّه وَخدْمَته فى بيوتِ الله كمَا شهدَ الجميعُ لأُمها امرأة عمرانَ بالطَّهارةِ وحُسْن السُّمْعة.

فَقَدْ قالَ الجميعُ: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة المائدة – الآية ٧٥.

(٢) سورة مريم – الآية ٢٨.

obeikandl.com

فَمَنِ الذى أودعَ رحمَ مريمَ هذَا الغلامَ الزَّكى؟

ومَنِ الذى أوقفَ قانونَ الأسبابِ والمسَبباتِ وحملتْ مريم دونَ أنْ يمسهَا بَشَر؟

وَمَنِ الذى تولَّى تخْليقَ الجنينِ فِى رحمِ مريمَ وطَوَّره حتَّى جاءتْ لحظَةُ المخاض؟

إنَّهُ اللهُ ربُّ العالمينَ الذى خلقَ فَسَوَّى وقدَّر فهدَى وأبدعَ صُنعَ كُلِّ شىء..

إنَّ أَسْمَى مَقَام يقفهُ الإنسانُ أمامَ الله عزَّ وجلَّ، هُوَ مَقَام العبوديَّة الخالصَة؛ الذى يحفظُ للإنسانِ كرامتهُ وعزتهُ ويمنحهُ الشرفَ والمجدَ، ويجعلهُ يُتْقنُ العملَ ويُحْسنُ السلوكَ، ويتعَايَشُ بمكارمِ الأخْلاقِ. فاللهُ ربُّ العالمينَ لهُ السلطانُ المطلقُ والهيْمنَةُ الكاملَة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

(١) سورة الأعراف – الآية ٥٤.

obeikandl.com

وهذا السلطانُ العظيمُ وتلكَ الهيْمنَةُ الكاملةُ قائمة عَلى الحكمةِ والعلْم، وَصادرة عَن الرأفة والرحْمة وَمُصَاحبة للطف وَالبر.

قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[3].

إنَّ الخلقَ جميعًا يقفونَ موقفَ العُبُوديَّة لله تَعَالَى، يتقدَّمُهم سيدُنَا ﷺ، وَيليه المصْطَفَوْنَ منَ الملأِ الأَعْلَى وَمن بنِي البشَر لا يشذُّ عَنْ ذلك أَحَد.

فالعبدُ الكاملُ هو سيدُنَا محمدٌ، ولهذَا جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالوصفِ، دونَ أَنْ يتبعهُ بالاسم الموصُوف، دلَالة عَلى اشْتهاره وعلُو مكانته ﷺ في هذَا المقام.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام – الآية ١٨.

(٢) سورة النحل – الآية ٧.

(٣) سورة يوسف – الآية ١٠٠.

(٤) سورة الإسراء – الآية ١.

obeikandl.com

فَاليقينُ الكاملُ بأنَّ المرادَ بعبدِه هُوَ سيدنَا محمدٌ فهوَ المخصوصُ بالإسراء والمعْراج.

وقالَ جلَّ شأنه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[1].

فالمقصودُ هُوَ الوحيُ الإلهي إلىَ سيدنَا محمد ﷺ وحيًا حقيقيًّا صادقًا واضحًا لا لَبْس فيه وَلاَ غُموض. وعندمَا جاءَ البيانُ القرآنيُّ بالحديثِ عَنِ الأنبياءِ السَّابقينَ فِى مَقَامِ العبوديَّة ذكرَ الوصفَ والموصُوف معًا، قال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وقال سُبحانهُ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

وقال جل شأنه: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾[4].

وقال جلَّ ذكرهُ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة النجم – الآية ١٠، ١١.

(٢) سورة مريم – الآية ٢.

(٣) سورة صٓ – الآية ١٧.

(٤) سورة صٓ – الآية ٤٥.

(٥) سورة النساء – الآية ١٧٢.

وفي وصف عام وتأكيد قوي جاءَ قولُ الله تعالىَ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

٤ـ اليهود أعداء البشر

إنَّ عيسَى عليه السلام تكلَّمَ في المهد برسَالة تَنْتظرهُ؛ ليعيدَ النَاسَ إلى الروحَانيَّة الصَّافيَة، بعدَ أَنْ غَشيتهُمُ الماديَّةُ الحَالكَة. إنَّ بني إسرائيلَ عَلى عهدِ عيسَى عليه السلام، كانُوا قدْ وصلُوا إلى الحَضيضِ المادي، فكانتْ قُلُوبهم كالحجارَة أَوْ أَشَدُّ قسوةً. فتكلَّمَ عيسَى عليه السلام: بأنَّ الله سَيبعثُهُ نبيًّا يتحمَّلُ أمانةَ البَلاغِ عَن الخالقِ إلى الخلقِ، ويتلقَّى وحيًا إلهيًّا يُصححُ مَسيرةَ بَني إسْرَائيل.

لقدْ قَتَلَ اليهودُ الأنبياءَ، وقالُوا عَلى مريمَ بهتانًا عظيمًا، وحاولُوا قتْل المسيحِ عيسَى عليه السلام، ولكنَّ الله نجاهُ مِنْ كَيْدهم وَرَفعهُ إليه، ووقفُوا موقفَ العداءِ مِنْ كلِّ دعوةِ إصْلاَح، وَيتعاملُونَ معَ البشرِ مِنْ مُنطلقِ العنصريَّة البغيضة وَيقولُونَ- كما حَكى القرآنُ المجيدُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[2]. فَهُم يستحلُّون دماءَ

(١) سورة مريم – الآية ٩٣.

(٢) سورة آل عمران – الآية ٧٥.

الشُّعوب، وينتهكُونَ الأعراضَ، وَيُدنِّسُونَ المقدسات، ولاَ عهدَ لَهُم وَلَا مِيثاق..

وَتُواجهُ الأمةُ الإسلاميةُ اليومَ خطرَ الاسْتيطانِ اليهودى فى فلسطين، وهذَا الخطرُ الصُّهيونى لَنْ يقفَ عندَ حدودِ فلسْطين، ولَنْ يرضَى بالنيلِ إلىَ الفُرات، ولكنهُ خطرٌ مَا حِقٌ لكل أثرٍ إنسَانى، وَمُدمر لكلِّ قيمةٍ عَرفها البَشر.

وقد سجَّلَ التاريخُ فى مراحلهِ كلِّهَا أنَّ اليهودَ لا يحْلُو لَهم العيشُ إلَّا بتأْجيجِ الصراعِ، وإشعالِ نارِ الفتنةِ، ولمْ يسلمْ مِنْ أَذاهم وَكَذبهم وافتراءَاتهم الله تعالى ولاَ ملكٌ وَلَا نبىٌّ ولا بَشَر. قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

(١) سورة المائدة – الآية ٦٤.

٥ ـ «الشخصية السوية»

إنَّ عيسَى عليه السلام تكلَّم فى المهد محددًا سِمَات الشخصيَّة السويَّة التى عبدَتْ ربهَا وخضَعتْ لجلالِ الله وكماله..

لقدْ كانَ عيسَى مباركًا أَىْ معلمًا للخيرِ، نافعًا للبشرِ، ناصحًا لبنى الإنسَان، يأمرُ بالمعروفِ وَيَنهى عَنِ المنكرِ ويؤمنُ بالله.. وكانَ عيسَى مُلازمًا للصَّلاة، محافظًا عَلى أداءِ الزكاة، فَالصلاةُ تصلهُ بالله والزكاةُ تصلهُ بالمجتمع، وصلاحُ حالِ المرءِ مَوْقوف عَلىَ حسْنِ صلته باللَّه وحُسْن عَلَاقته بالناس.. ثُمَّ كانتِ الخصلةُ المهمةُ فى بناءِ الشخصيَّة السَّوية، وَهىَ البرُّ بالأُمِّ وَالإحسانُ إِلَى الوالديْن، فإنَّ الله تعالىَ قَرَنَ حَقّ الأبويْن بحقِّ الله، وحفىَّ الأمَّ بمزيدِ الشفقة فقال تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة لقمان – الآية ١٤، ١٥.

ومَنْ لاَ يَفى لأبويْه لَنْ يفىَ لأحدٍ منَ البَشـر، وسـيكونُ محرومًا مِنْ ثوابِ اللَّهِ وَسيُلاحقهُ عدلُ اللهِ فى الدنيا قبلَ الآخرة، قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم- كما فى صحيح مُسلم: رَغِمَ أنفُ ثُمَّ رَغِمَ أنفُ ثُم رغم أنفُ مَنْ أدركَ أبويْهِ عندَ الكبرِ أحدهمَا أو كلاهُمَا فلَمْ يَدْخل الجنَّة.

ثُمَّ كانتِ الخصلةُ المتممةُ لسماتِ الشخصيَّةِ السَّويَّةِ هىَ التواضعُ، وَلينُ الجانب، وحسْن العشْرة قال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[1].

وَمَنْ تحققـتْ فيه هذه الخصـال الحميدَة كانَ جديرًا أَنْ يعيشَ فى سلامٍ تَامٍّ وسَعادةٍ غَامرَة..

لقدْ حفظَ الله عيسَى عليه السلام فى مواطنَ الشِّدةِ كلِّهَا وَخَاصَّة عِندَ ميلَاده، وعندَ مَمَاته، وعندَ بَعْثه..

حادثة الإفك

اتهـامُ الأبرياء، وَإشـاعَةُ المنْكر حولَ الشُّـرفَاء، حـدثٌ قَديمًا وَيحـدثُ فى كلِّ زمـانٍ وَمَكَان، ويتناقلهُ السُّـفهاءُ مِنَ الناس.. وَلَمْ تكُن السـيدةُ مريم الأُولى مِنَ المحصنـاتِ اللآتى يتعرضْنَ للإتهام

(١) سورة مريم – الآية ٣٢.

الظالم ولَنْ تكـونَ الأَخيرة، وعندنَا مَوْقفٌ فِـى بيتِ النبوةِ يُعرف بحادثةِ الإفْك..

فمِـنْ مواقفِ الإثـمِ والبهتانِ لعبدِ اللّه بنِ أبىّ بنِ سَـلُول زَعيم المنافقينَ فِى المدينة - أَنْ أشـاعَ حديثَ الإفكِ حولَ الصّديقةِ بنتِ الصِّديق عَائشة أم المؤمنينَ، وقالَ قَولتهُ الآثمةَ: وَاللّه مَا نجتْ منهُ ولَا نَجَا منهَا..!!

وذلكَ عندَما رأَى السـيدةَ عائشةَ تدخلُ المدينةَ عَلى جملٍ يَقُودهُ صفوانُ ابنُ المعطلِ بعدمَا تأَخَّرت عَنْ مَقْدمِ الجيشِ لعذرٍ ألمَّ بِهَا.

وتصفُ لنَا السيدةُ عائشةُ مقدمةَ هذه الأحدَاثِ فتقولُ:

كانَ رسولُ اللّه ﷺ، إذَا أرادَ أنْ يخرجَ لسفرٍ أقرعَ بينَ نسائه، فأيتهنَّ خرجَ سهمُهَا خرجَ بهَا رسولُ اللّه ﷺ مَعَهُ.

قالتْ عائشةُ: فأقرعَ بيننَا فِى غزوَةٍ غزاهَا، فخرجَ فيهَا سَهْمِى، وخرجتُ معَ رسولِ اللّه ﷺ، وذلكَ بعدَ مَا أُنزلَ الحجابُ، فأنَا أُحملُ فِى هَوْدجِى وأنزلُ فيه.

فسرنَا حتَّى إذَا فرغَ رسولُ اللّه ﷺ منْ غَزْوته تلكَ، وقفلَ وَدنوْنَا منَ المدينة أَذَّنَ ليلةً بالرَّحيل، فقمتُ حينَ أَذَّنَ بالرحيلِ، فمشـيتُ حتَّى جاوزتُ الجيشَ، فلما قضيتُ شأنِى أقبلتُ إلى رحْلِى، فلمستُ

صـدْرِى فإذَا عِقْدٌ لِى منْ جزعِ ظفار قد انقطعَ، فالتمسـتُ عِقْدِى، فحبسَنِى ابتغَاؤه.

وأقبـلَ الرهطُ الذينَ كانُوا يرحلوننـى فاحتمَلُوا الهوْدج فرحلُوه عَلَى بعيرِى الذِى كنتُ أركبُ، وهُمْ يحسبونَ أنِّى فيه.

وَتُعلل السـيدةُ عائشـةُ عَدم إدراك هؤلاء الرجَالِ لخلوِّ الهوْدج فتقـولُ: وكانَ النسـاءُ إذْ ذاكَ خِفَافًا لـم يثقلنَ ولمْ يغشـهنَّ اللحمُ، إنمَا يأكلْنَ العُلْقة[1] منَ الطعام فلَمْ يَسْـتنكر القومُ خفةَ الهودجِ حيـنَ رفعُوه وحملوهُ، وكنتُ جَارية - أى فتاة - حَدِيثة السنِّ، فبعثُوا الجملَ وسَارُوا.

فماذَا فعلَتْ عَائشة؟

تقـولُ: ووجدتُّ عِقـدِى بعدمَا اسـتمرَّ الجيشُ، فجئتُ مَنازلهم وليـسَ بهَا داعٍ ولاَ مُجيب، فتيممتُ منزلِى الذِى كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيفقدوننِى فيرجعونَ إلَىَّ.

وكيف تمَّ اللقاءُ؟

تقولُ: فبينمَا أنَا جَالسة فِى منزلِى غلبتنِى عيناىَ فنمْتُ.

---

(١) بضم العين وسكون اللام، أى القليل.

وكانَ صفوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمى ثم الذكوانى قَدْ عرسَ[1] منْ وراءِ الجيشِ فأدلجَ فأصبحَ عندَ منزلِى، فرأَى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتانِى فعرفنِى حينَ رآنِى، وكانَ قدْ رآنِى قبلَ الحجَابِ.

فاستيقظتُ باسْترجاعِه حينَ عرفنِى، فخمرتُ وجْهِى بجلبَابِى، ووالله مَا كلَّمنِى كلمةً، ولاَ سمعتُ غيرَ اسْترجاعِه حينَ أناخَ رَاحلتَهُ، فَوَطِئَ علىَ يدهَا فركبتهَا، فانطلقَ يقودُ لِى الراحلةَ حتَّى أتينَا الجيشَ بعدَ ما نزلُوا معرسينَ فِى نحرِ الظَّهيرةِ.

ثم بدأَتِ السيدةُ عائشةُ تقصُّ أحوالَها عندمَا وصَلَت بيتَ النبوَّةِ، وما تلاَ ذلكَ منْ أحداثٍ، حتَّى اكفهرَّ جوُّ المدينةِ ما يقربُ منْ شهرٍ، والرسولُ الكريمُ فِى حيرةٍ وقلقٍ، وأسرةُ الصِّديقِ فِى كربٍ شديدٍ، والمسلمونَ فِى فتنةٍ شديدةٍ إلىَ أنْ جاءَ الوحىُ فاصلاً فِى القضيَّةِ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2].

---

(١) عرس: نزلَ خلفَ الجيشِ بعدَ رحيلِه ليجمعَ مَا قدْ ينساهُ الجنود مِنْ متاعٍ.

(٢) سورة – النور الآية ١١.

ومنْ وقائعِ الأحداثِ يومئذٍ مَا ساقهُ الوَاقِدى وابن إسحاق[1]: أنَّ أبا أَيُّوب الأنصارى قالتِ امرأتهُ: أَمَا تسمعُ مَا يقولُ الناسُ فِي عَائشةَ رضىَ اللّه عنهَا؟!

قالَ: نَعَمْ وذلكَ الكَذب، أكنتِ فاعلةً ذلكَ يَا أُمَّ أَيُّوب؟!

قالتْ: واللّه ما كنتُ لأفعَلَهُ.

قالَ: فَعَائشة خيرٌ منْك.

فلمَّا نزلَ القرآنُ ذكرَ اللّه عزَّ وجلَّ مَنْ قالَ فِي الفاحشةِ مَا قالَ مِنْ أَهلِ الإفكِ: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم.....» وذلك حسان وأصحابهُ الذَينَ قالُوا مَا قالُوا.

ثم قالَ تعالىَ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[2].

أىْ كما قالَ أبو أيوب وصَاحبته.

وهكذَا كانتْ مقَالة أبى أيوب الأنصَارى مُوَافقة للوحْى فِى تأديبٍ إلهى لمجتمع المسلمينَ أنْ يقيسُوا ذلكَ الكلامَ عَلى أنفسهم، فإنْ كانَ لَا يليقُ بِهِمْ، فأمُّ المؤمنينَ الصِّديقة بنتُ الصديقِ أولَى بالبراءَة.

(١) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٣، ص٢٧٣.

(٢) سورة النور – الآية ١٢.

فينبغي حُسن الظنِّ بالمسلمينَ حتَّى يقومَ الدليلُ عَلى عكسه.

ومعاملَات الناسِ لا تستقيمُ إلَّا بهذَا المبدَأ، ولَوْ قدَّمنَا سوءَ الظَّن مَا صَلحت الحياةُ، ولأصبحَتِ النفوسُ كئيبةً حزينةً قلقةً، ترتابُ فِي كلِّ أحد، وَفِي كُلِّ شيء.

وَقدِّمت الآياتُ فِي سيَاقِ الإفك تأْديبين آخريْن:

الأولُ قولُه تعالىَ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

وهَذه مُوَافقة أُخرى للسيدة زينب بنت جحْش، فلمَّا سألهَا رسولُ اللّه ﷺ قالتْ: أحمِي سمعِي وبصرِي، وَاللّه ما علمتُ إلَّا خيراً.

فالمسلمُ لا يخوضُ مَعَ الخائضينَ، ولا ينقلُ كلماتِ السُّوءِ، ويصونُ لسانَهُ خشيةَ أَنْ يكبهُ عَلَى وجْهِهِ يوم القيامة كما يقول الرسول ﷺ فى الحديث الشريف.

الثانى قولهُ جلَّ شأنهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة النور – الآية ١٦.

(٢) سورة النور – الآية ١٩.

فالمسلمُ ينزهُ سمعَهُ وبصرهُ، ويكرهُ قَالةَ السوءِ حولَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويظلُّ حريصًا عَلى تنقيَةِ أجواءِ المجتمَع.

وهكذَا فالمسلمُ تحكمهُ آدابٌ ثَلَاثةٌ:

- يظنُّ خيراً.
- وإنْ حدَّثتهُ نفسهُ بسوءٍ لَا يتكلَّم به.
- وإنْ سمعَ مَا يسوءُ أحداً فلَا يتنَاقَله.

وبذلكَ تُصان العورَاتُ وتحفظُ الأعرَاض.

بقيتْ نقطةٌ تتعلَّقُ بالموَافقَات، وهيَ أنَّ آياتِ القُرآنِ حولَ براءةِ السَّيدةِ عائشةَ تعدُّ فِي ذاتهَا مُوَافقة منَ الموَافقَات.

فعندمَا انقطعَ الوحيُ شهراً، ذهبَ الرسولُ ﷺ إلى بيتِ الصِّديقِ، وواجهَ السيدةَ عائشةَ - لأولِ مرة - بمَا يقولُ النَاسُ، وقالَ لهَا: إنْ كنتِ بريئةً فسيبرئكِ اللّه، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاسْتغفرِي اللّه وتوُبِي إليهِ، فإنَّ العبدَ إذَا اعترفَ بذَنبهِ ثمَّ تابَ تابَ اللّه عليه.

وكانَ وقْعِ هذه الكلماتِ شديداً عَلى قلبِ الصِّديقة؛ حتَّى انقطعَ دمعُهَا وجفَّ، بعدَ أَنْ كانتْ تبكي بكاءً مرًا، والتفتتْ إلى أَبيهَا وقالتْ: أجبْ عَنِّي رسولَ اللّه.

فقالَ: واللّهِ مَا أدرِي مَا أقولُ.

obeikandl.com

فالتفتتْ لأمهَا وقالتْ: أجيبي عَنِّي رسولَ اللّه.

قالتْ: واللّه مَا أدرِي مَا أقولُ.

هنَا انتفضَتْ السيدةُ عائشةُ قائلةً: واللّه لقدْ علمتُ أنكم سمعْتُم مَا يتحدَّثُ بِه الناسُ، ووقرَ فِي أنفسِكُم، وصَدَّقتم بِه، ولئنْ قلتُ لكُم إنِي بَرِيئَة - وَاللّهُ يعلمُ أنِّي لبريئَة - لا تصدِّقوننِي بذلكَ، وَلئنْ اعترفتُ لكُم بأمرٍ - وَاللّهُ يعلمُ أنِّي لبرِيئَة قُمتم بتصْديقِي.. وَاللّه ما أجدُ لِي ولكمْ مثلاً إلاَّ أبا يوسُف، إذ قالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (١).

وهنَا يتأكدُ تعلُّق قلْب عَائشَة بالوحيِ، وَتولِّي وجههَا إلىَ اللّه، ثم تصفُ لنَا دَخَائل نفسهَا فتقولُ:

ثُم تحولتُ عَلى فِراشِي، وأنَا أرجُو أنْ يبرئنِي اللّه، ولكنْ - وَاللّه - مَا ظننتُ أنْ ينزلَ فِي شأنِي وَحْياً يُتْلىَ، ولأنَا أَحْقرُ فِي نفسِي مِنْ أنْ يُتَكلم بالقرآنِ فِي أمرِي. ولكنْ كنتُ أرجُو أنْ يرى رسولُ اللّه ﷺ فِي النوم رؤيَا يُبرئنِي اللّه بهَا.. وَحقَّق الله رجاءَهَا، ونزلَ الوحىُ ببراءتهَا، وكانتْ مُوَافقة لعائشةَ رضِىَ اللّه عنهَا معَ القرآنِ المجِيد.

---

(١) سورة يوسف - الآية ١٨.

الخاتمة

عيسى ابنُ مريمَ نَبيٌّ كَريم، وأُمُّه صِدِّيقةٌ، وَمِنْ سُلالةِ أُولي الفضْلِ وَالطُّهر..

خلقهُ الله تعالىَ مِنْ فتاةٍ عَذْراءَ عَابدةٍ، دونَ أَنْ يمسهَا بَشَرٌ لتظهرَ طلَاقة القدرَة الإلهيَّة المبدعَة..

وَأنطقهُ الله فِى المهد ليبرِّئ أُمَّه مِنْ بُهتانِ اليهودِ أعدَاء الأنبياءِ والمصلحينَ، وليبشرَ برسالةٍ تنتظرهُ يعيدُ للإنسانِ توازُنَهُ الرُّوحى..

وكانتِ الدروسُ بليغةً كىْ نتجنبَ قولَ الزورِ، وقذْفَ المحصنات، ولكىْ نوُقنَ بأنَّ مَا شاءَ الله كانَ ومَا لمْ يشأْ لمْ يكُن، وَلكَىْ ندركَ أنَّ شرفَ العبوديةِ لله وحدهُ، هُوَ العزُّ والكرامةُ لبنِي البَشَر.

obeikandl.com